الأدب الجاهلي

ألنا أن نطمئن اليه ندرسه ونرويه؟

إن لنا أن نطمئن

للأستاذ السباعي السباعي بيومي
مدرس الأدب العربي بدار العلوم

كانت العرب فى جاهليتها أمة فصاحة وكلام ولسن وبيان ، لامطعن هنا لطاعن ولاجدال، ساقهم إلى ذلك فطرة فطروا عليها من صفاء خاطر وذرابة لسان ، وحفزهم اليه طبيعة عيش اقتضت منهم أن يتغنوا ويرجزوا ، ويتفاخروا ويتعاكظوا ، حتى كان الكلام بضاعتهم النافقة، به تعمر أسواقهم، ويتناقله عنهاحداؤهم وركبانهم،فيدوى فى أرجاء جزيرتهم دويا تهتز به رمالها، ويطرب له كل ذى حياة يعيش فيها ، ثم لايلبث أن تضيق به جوانبها فاذا هو قد جاوزها إلى الأمم الأخرى ، وقديما كان لكل أمة سمة تعرف عنها فى غيرها، وسمة العرب الكلام.

كان طبيعيا إذن أن تقول العرب ،وأن تكثر من القول ، وأن يتناول ذلك عصوى الأدب اللتين عليهما نهض من نثر وشعر ، كل فى الغرض الذى من أجله كان وله درج ، ولكل مقام مقال . . . وكان طبيعيا مع هذا أن يتناقل السامعون كلام القائلين خلفا عن سلف ، إبقاء للأغراض التى قيل فيها ، ومحافظة على المآثر التى سجلها ، فاذا ما ضممنا الى هاتين طبيعتين أخريين : هما القدرة الفائقة التى كانت معروفة للعرب على الحفظ واعتزاز كل قبيل بمواد حسبه ومفاخره، ضنا بها أن تدول ، مضافا اليهما ماكانوا عليه جميعاً من أمية جعلت دفاترهم رءوسهم ودواوينهم حفظ أقوالهم ، كان لنا أن نطمئن إلى أن هذه المناقلة الكلامية تبقى مابقيت هذه العوامل ذات كون وثقة وتأييد،حتى يطرأ على العرب مايغير هذه النواميس ويطبعها على غيرها ، وإن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ولكن شيئا من ذلك لم يكن حتى جاء الاسلام .

جاء الاسلام والجزيرة العربية تدوى دوى النحل قد ضل، غير أنه بكل مأثور من القول اعتز به حافظه وحرص عليه سامعه الى درجة لم يلهم عنها الاسلام بحدثه الأجل ودهشته العظمى ، فاستمروا من بعده طويلا يعقدون عكاظهم ، ويسترسلون فى مفاخراتهم ومنافراتهم ، وهل كان الاسلام إلا متحديا لهم فى بابهم،ومنازلا إياهم من واديهم وقد جعل آيته الكبرى القرآن الكريم، يساجلهم فى الفصاحة ، ويحاجهم بالبلاغة ثلاثا وعشرين سنة حتى امتلك عليهم ناصيتها واستل من أيديهم زمامها فألقوا اليه قياد النثر ، وعكفوا هم على الشعر ؟ وهذه احدى

الدواعى التى جعلت مأثور الشعر أكثر من مأثور النثر كما سنذكر فى محل كنهما قلة وكثرة إلى الطبيعة بعد .

قد يقال: كان للاسلام أن يغطى على القديم ، ويخذل الناس عن روايته ، ولكن كيف وقد أودع تعاليمه وأحكامه كتاب الله وهو الذروة فى البلاغة ، وحديث رسوله وهو المقفى له من بعده ، وليس من سبيل إلى استمرار فهمهما والحرص على عدم استغلاق معناها إلا برواية لغة العرب والمحافظة على تفهم مأثورها ، وهذا لعمرى داع دينى دعى إلى الرواية والمدارسة منذ فجر الاسلام ، وناهيك بالوازع الدينى وبخاصة فى ذاك العهد من حاث للهمم إلى العمل ، ونائل من النفوس مكانة التقديس والاجلال .

حرص المسلمون منذ جاء الاسلام على أدبهم حرصهم على دينهم ، وهاهو ذا عبد الله بن عباس رضى الله عنه فى تفسيره القرآن الكريم كان يجلس لدراسة الأدب وفى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتضرب اليه أكباد الابل من أقصى الجزيرة وأبعد منه لسؤاله عن معانى كثير من مفردات القرآن ومطالبته أن يحتكم فى معناها إلى المأثور من كلام العرب فيروى فى ذلك الكثير من الأشعار ، وما بغائب عنا ما كان منه لنافع بن الأزرق أحد رؤساء الخوارج إذ ذاك فى هذا الباب ... من ذلك كانت مذاكرة للادب القديم على عهد الخلفاء الراشدين بل وبألسنة بعضهم ، ثم حذا حذوهم فى هذا — وبشكل أوسع دائرة وأبعد مدى — ملوك بنى أمية ، فكانت مجالسهم مثارا للأدب يسوق إليه الاستمتاع واللهو والتسلى والقصص أو المفاخرة والمنافرة والخصومة واللدد إلى ما كان قائما بجوار هذا فى البادية مما استمر تظهر صوره بعكاظ طويلا ، وبمربد البصرة الذى خلفها ، او ركدت ريحها من بعد ، بل وبسائر المجالس والمنتديات ، ومن هنا نشأت الرواية بالمعنى الاصطلاحى وكثر الرواة ، ولم يكد كاهل هؤلاء ينقل بالحفظ والتعليق حتى انتشرت الكتابة ، وكان التدوين فرفع عنهم ما أثقلهم وجعلهم يوجهون جهودهم إلى ما صمدوا له من البحث والتحليل .

هذه طريق لا عوج فيها ولا أمت درج فيها الأدب الجاهلى حتى وعته بطون الكتب ، فاذا بالكم الذى وصل الينا خاضع فى مقاديره لما يقتضيه العقل وتتطلبه سنة البقاء : فالشعر وقد صار هم العرب وحده لما تقدم من غزو القرآن للنثر غزوة قللت من شأنه وصرفت الأذهان عنه — قد حفظ منه أكثر مما حفظ من النثر الذى درس معظمه قبل أن يتصل بطبقات الرواة ، وإلا وصلنا منه ما تنفد دونه الصحف وتجف المحابر لأنه للجماعة ، والشعر للأفراد ، على أن من الأسباب الداعية إلى قلة مأثوره أيضاً ماهو سابق للاسلام ، إذ لاشك أنه أصعب من الشعر حفظا وأبعد استذكارا ، وهذه نظرية خضع لها النثر فى أقسامه كما خضع لها أمام الشعر فى جملته ، فكان أكثره رواية أيسره حفظا : إما لقلة ألفاظه وصغر صوره كما فى الحكم والأمثال التى

سهل على الألسنة ترددها، وكانت الحوادث تدعو إلى استعمالها فوصل منها أكثر مما وصل من غيرها، بينا يجزم العقل أنها لابد كانت قلة فى كثرة، ونقطة فى لجة لصعوبة معالجتها وندرة الأشخاص القديرين عليها، وإما لأنه مع طوله تقرب إلى الشعر قليلا بالازدواج أو كثيرا بالسجع، فكان فى ذلك الاتزان فى التقسيم والتوافق فى التقفى ما جعله سهل الحفظ على الذهن، شديد الاعتلاق بالنفس، ومن ثم نجد المروى من المسجوع أكثر من المزدوج، وهذا أكثر من المترسل، مع أن الطبيعة التى يخضع لها صدور الكلام تأبى إلا العكس، ولكن ماقيل شىء والذى روى شىء آخر، ومن ثم أيضا، لم يصلنا عن الجاهلية من الكلام المرسل إلا القليل، مع أنه كان الغالب الكثير، ولولا أسباب خارجة عن كنهه حملت على روايته لباد كما باد سائره، فتعزية أكثم بن صيفى حكيم العرب لأحد ملوكها فى أخيه وهى مرسلة، وكلمة قبيصة بن نعيم رئيس وفد بنى أسد إلى امرىء القيس عقب مقتل أبيه وهى مرسلة أيضا وفيها بعض ازدواج — لولا مكانة الحادثتين ومن قال ومن قيل له — لعفتا فيما عفا وزالتا فيما زال. ولمثل هذه الاسباب الخارجة كان المأثور فى السجع عن الكهان أكثر من غيره لغرابة موضوعه، واتصال بعضه بالعقيدة، مع مافيه من إطالة التقفية، وهذا حكم فيه إن لم يصدق كما صدق نسبة.

أفبعد هذه الطريق التى تكنفها الطبيعة ويسايرها العقل يطعن فى الأدب الجاهلى، ويرمى كله بالوضع والاختلاق لتفاهة زاد هافيه بعض الدساسين، وأساطير وضعها عليه بعض القصاصين، ومطاعن وجهت الى آحاد فى جمهرة الرواة ثم يدعى بجرأة إلى دراسته فى صدر الاسلام ودولة بنى أمية كأن الزمان كان قد وقف، وكأن شيئاً من أحداث الاسلام المزلزلة لم يك كان!؟ إن هذا لاجحاف بالتفكير وظلم للعقول: فالأدب الجاهلى كثرة تتضاءل أمامها تلك الزعانف الموضوعة، وصخرة تتكسر عليها هذه النفاخات الطائرة، على أنها إذ ألصقت به وهو منها براء لم يتلبس الأمر فيها على رواته، بل ميزوها ميز الخبيث من الطيب، ووسموها بميسم الزيف أمام الجيد الصحيح، عرفوا ذلك شفاها حيث كان مرجع الأدب الحفظ ثم دونوه واضعين أمامه أدلة التزييف حين التدوين، فما بال المدعين هذه الدعوى ينسبونها إليهم تجديداً ويدعونها ابتكاراً وآثار أقلام الأقدمين منذ أكثر من عشرة قرون تكاد تخرج اليهم من بطون الكتب فتسود صفحات وجوههم من هول ما يقولون؟

أكان ما يقولون حقاً، ولم تفطن إليه الشعوبية فى القديم وقد مكثت قرونا تعير العرب ما شاء لها التعيير فتتلمس فى كمالها نقصا وتجعل ماتظفر به من الحقير عظيما ثم لا تهتدى إلى أن خير ما تفخر به العرب — وهو أدبها — ليس لها وانما هو شىء انتحلته زورا وادعته بهتانا فتقف أمام ذلك لاتقدم رجلا ولاتحير جوابا، بينا يكفيها نقضه وحده مئونة الكد المتعب والكدح المضنى؟ إنها وقفت لا عن خفاء وغيب ولكن أمام نور بهرها وسلطان قهرها لم يكد يلصق به كلف

من ظلام، أو ينسب إليه زيغ من ضلال حتى ميزه ذووه ورموا به بعيدا مزجر الكلب ومنبذ النواة ،ولقد كان من الرامين النابذين بعض من الشعوبيين .

وأكان مايقولون حقا ويتركه فى الحديث جمهور المستشرقين دون أن يخوضوا فيه بالتجريح والتخديش فيسودوا ناصع بياضه، اويصيبوه فى قدسه وجلاله، بدل أن يرووه ويخدموه ويعترفوا به اعتراف من قهره الحق وأنطقه الواقع، ثم يخرجوا من هذا بنتائج عن العرب قد يسوءهم تدوينها أولا يرتاحون إلى إثباتها ؟ فعلوا ذلك ولم يشذ عنهم إلا من أضله الله على علم فشايع التعصب الدينى وزحف إلى الطعن فى دين العرب من طريق الطعن فى أدب العرب، فأخذ ماميزه رواتهم لينبذ فأثبته ،ومالخصوا عنه ليستبعد فقربه ، ومع ذلك لم يشايعه بنو جنسه ومنهم بعض رجال الدين ، وان للحق لأنصارا حيث تظن الظنون وتتوقع الخصوم .

وإذا كان الأدب الجاهلى كله دسا وتدخيلا، فما هو إذن الأدب الذى كان يروى فى صدر الاسلام والدولة الاموية ، قبل أن يخلق الدساسون أمثال: حماد الرواية فى النصف الأول من القرن الثانى، وخلف الأحمر من بعده فى نصفه الأخير ، وهلا إذا كان الدس يقع جزافا وبغير حساب ، كان الأولى بالدساسين أن يستكملوا لنا مواضع نقص فى أدبنا كانت ولم تزل فاغرة فاها حتى يكون ذلك أسوغ لقولهم وأستر لدسهم ؟ لم لم يدسوا بضعا من خطب على رجال جاهليين ضرب المثل بفصاحتهم فى الخطابة ، وكانوا فيها حكاما وعلى أهلها قواما، وليس للواحد منهم فى المأثور سوى الكلمة والكلمتين ، أليس لأن الأمر لم يك كما يتخرصون فوضى سبهللة لا ضابط له ولا رادع عنه.... وهل يقبل منا أن نمرر المدسوس على رجال النقد وارباب الكلام فى عصور التدوين والتأليف ، ثم نزعم لأنفسنا الآن أنا به أعرف وله أميز؟ وهل ميزنا غير ما ميزوا إلا ما سقناه قولا بلا حجة ونتيجة من غير مقدمة؟ ثم يقولون إن اختلاف الرواية دليل على الدس، والله نشهد أن الروايات فى عهد يقع الاعتماد فيه على الحفظ وحده دون كتاب يسند، او نقش يؤيد، لو أتحدت ولم ترفيها مارأينا من خلاف هو الطبيعى والمعقول: لكان لنا أن نتخذ الاتفاق دليل الدس، فكيف يتخذ الاختلاف دليلا علينا وهو لنا، ولسان ضدنا وهو حجتنا ؟

إن المجددين بالمعنى الذى يقحمون فيه كلمة التجديد ،لا بالمعنى الذى نحترمه نحن، أن يرعوا للقديم عهده، ولحق البحث حرمته، وألا يتجاوزوا ميز المدسوس عنه إلى نقضه من أساسه، فانهم إذا نقضوه وماهم ببالغيه ، ثم عادوا بعد ذلك يبنون، وقع بناؤهم على غير أساس فاذا ما نفخوا فيه وصوروه وتساندوا إليه فأقاموه لايلبث أن يخونهم وينهار، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ؟ السباعى السباعى بيومى